فضائل بيت المقدس

للدكتور اسحق موسى الحسيني
رئيس قسم البحوث الفلسطينية بالمعهد

فى تاريخ الإسلام ظاهرة فريدة لا نظير لها عند سائر الامم ، هى تأريخ مدنهم بإسهاب ، شاملا الجوانب الطبيعية والإنسانية والحضارية بأوسع معانيها .

ومن المؤسف أن تاريخ الحضارة الإسلامية ما زال مجهولا ، وسيظل مجهولا ، ما بقيت آلاف المخطوطات العربية مدفونة فى خزائن الكتب فى معظم أنحاء العالم .

وليس لدينا إحصاء دقيق عن عدد هذه المخطوطات ، ولكن لا مبالغة فى القول إنها تزيد على المليون[1] . وجزء صغير من هذا التراث ، بل قبسة من تلك الأنوار ، يطلق عليه المؤرخون المسلمون « تأريخ المدن » .

ويبدو ، بعد جولة فى كتب التراجم وما يشبهها من مظان ، أن المسلمين أرخوا لمعظم مدنهم الكبيرة والصغيرة ، كما يؤرخ الابن لأبيه حانياً عطوفاً ، وفى بعض الأحيان أرخ للمدينة الواحدة مؤرخان وثلاثة أو أكثر[2] .

وفى طوفة قصيرة أحصيت زيداً على خمسين كتاباً فى هذا الموضوع ، بعضها فى مجلد واحد ، وبعضها فى مجلدين ، وبعضها فى عشرة مجلدات ،

---

(١) التراث الإسلامى ، فى كتاب « أبحاث فى ماضى المسلمين وحاضرهم » لكاتب البحث ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ٤١ .

(٢) ذكر الدكتور على حبيبة فى مقدمته لكتاب « تاريخ الموصل » لأبى زكريا يزيد ابن محمد الأزدى أسماء أحد عشر مؤلفاً صنفوا فى تاريخ المدينة أو أخبارها مثل الخالديين ، والشمشاطى ، وإبراهيم الموصلى ، وابن بلطيش . . الخ ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ٢٠ — ٢١ ، ونظير ذلك ما ألف فى تاريخ القاهرة ومكة ودمشق وبغداد وبيت المقدس .

وبعضها فى عشرين مجلداً[١].

ومن هذه التواريخ ، مرتبة أبجدياً :

تاريخ أبيورد ، تاريخ آران ، تاريخ إربل ، تاريخ استراباد ، تاريخ الإسكندرية ، تاريخ أصبهان ، تاريخ أصفهان ، تاريخ آمد ، تاريخ البصرة ، تاريخ بغداد ، تاريخ تكريت ، تاريخ تلمسان ، تاريخ جرجان ، تاريخ حلب ، تاريخ حماة ، تاريخ خوارزم ، تاريخ دمشق ، تاريخ رام الله (قرب مدينة القدس ، نيويورك ١٩٥٤) ، تاريخ الرقة ، تاريخ الرى ، تاريخ سامرا ، تاريخ سمرقند ، تاريخ شيراز ، تاريخ صفد ، تاريخ صقلية ، تاريخ صنعاء ، تاريخ طرابلس الغرب ، تاريخ عدن ، تاريخ عكا (بعد الاحتلال الإسرائيلى) تاريخ فاس ، تاريخ الفيوم ، تاريخ قزوين ، تاريخ الكوفة ، تاريخ الكويت ، تاريخ المدينة ، تاريخ مراغه ، تاريخ مرو ، تاريخ مكة ، تاريخ الموصل ، تاريخ نابلس والبلقاء (لمواطننا إحسان النمر ، دمشق ١٩٣٨) ، تاريخ الناصرة (لمواطننا القس اسحق منصور ، القاهرة ١٩٢٤) ، تاريخ نسف ، تاريخ نيسابور ، تاريخ هراة ، تاريخ همدان ، تاريخ واسط ، تاريخ ميا فارقين ، تاريخ اليمن[٢] . وتشعبت من كتب التاريخ شعبة طريفه تسمى (فضائل المدن) وأحياناً محاسنها .

---

(١) مثال ذلك (١) تاريخ الإسكندرية للمحدث وجيه الدين أبو المظفر الهمدانى الإسكندرانى ، محتسب الإسكندرية فى مجلدين (٢) ذيل محب الدين أبى عبدالله بن النجار البغدادى على تاريخ بغداد للخطيب البغدادى فى ٣٠ مجلداً (٣) تاريخ صنعاء لأحمد بن عبدالله الرازى فى ٣ مجلدات (٤) تاريخ عدن لعبدالله الطيب باخرمة فى ٣ مجلدات .

(٢) لم نشأ الاثقال على القارئ بإثبات أسماء المؤلفين والمصادر . . الخ. ولكن يسعدنا أن نرشده إلى ذلك إذا شاء .

ومن ذلك فضائل بيت المقدس ، موضوع هذا البحث ، وفضائل البصرة ، وفضائل بغداد ، وفضائل الشام ، وفضائل غرناطة ، وفضائل مصر والقاهرة (الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة) وفضائل اليمن وأهله . . . الخ .

ومن المحزن أن معظم هذه الكتب مخطوط أو مفقود ، وأن عناية العرب والمسلمين بهذا الموضوع قليلة جداً :

وقد أرخ للمؤرخين وللجغرافيين وللرحالة العرب بعض العلماء الغربيين أمثال F. Wüstenfeld (وستنفلد) و I. I. Kracheovski (كراتشكوفسكى)[1] ولكن لم يظهر منا من اقتفى أثرهم وعقّب على أقوالهم وصحح وزاد .

وتفردت « بيت المقدس » بعناية لا نظير لها فقد أرخ لها ولرجالها ووصف آثارها ، وأبان منزلتها ، وأشاد بمحاسنها عددٌ كبير من العلماء ، من أبنائها وزوارها ومحبيها .

ويرجع ذلك إلى ثلاثة أسباب :

الأول : أن بيت المقدس مدينة أنبياء الله ، ابتداءاً بابراهيم الخليل إلى عيسى بن مريم عليهما السلام . وقد أشار إلى ذلك بأسلوب بليغ أول من خطب المسلمين فى المسجد الأقصى أثر الفتح الصلاحى ، القاضى محيى الدين محمد بن زكى الدين على القرشى ، حين قال « هو مقر الأنبياء، ومقصد

---

(١) Die Geschishtsschreiber d. Araber, F. Wüstenfeld, Gott. 1881.

وتاريخ الأدب الجغرافى العربى لأغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكى ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، اختارته – مشكورة – الإدارة الثقافية فى جامعة الدول العربية ، وطبع فى القاهرة فى جزءين ١٩٦٣ و ١٩٦٥ ، وعلم التاريخ عند المسلمين لفرانزروزنتال F. Rosenthal ترجمة الدكتور صالح أحمد العلى ، بغداد ١٩٦٣ .

الأولياء ، ومدفن الرسل ، ومهبط الوحى ، ومنزل ينزل فيه الأمر والنهى . وهو البلد الذى بعث الله إليه عبده ورسوله وكلمته التى ألقاها إلى مريم وروحه عيسى الذى كرمه برسالته وشرفه بنبوته[١] »وأوجز ذلك عبدالله ابن عمر بقوله : « بيت المقدس بنته الأنبياء ، وعمرته الأنبياء ، وما فيه موضع شبر إلا وقد سجد عليه ملك أو قام عليه ملك »[٢].

والواقع أنه يمكن القول إن عرب الجاهلية أحاطوا المدينة برعاية تبلغ حد التقديس . فقد حدثنا سفر التكوين أن ملكى صادق ، ملك شاليم — وهو اسم بيت المقدس — خرج لاستقبال ابرام — ابراهيم — وأخرج خبزاً وخمراً ، وكان كاهناً لله العلى ، وباركه وقال : مبارك أبرام من الله العلى مالك السماوات والأرض . . .[٣].

حدث ذلك قبل نحو ٣٧ قرناً من الفتح الإسلامى . وظلت المدينة على مدى العصور ، مدينة الله العلى . وإذ ورث المسلمون تراث أجدادهم الأقدمين ، وتراث أنبياء الله جميعاً من عهد الاسرائيليين إلى آخر عهد النصارى ، فقد ظلت المدينة مقدسة فى جاهليتهم وإسلامهم . وهذا سر قدوم خليفة المسلمين عمر بن الخطاب إلى المدينة لأخذها سلماً ، وسر محافظة صلاح الدين على حرمتها وتطهيرها مما يدنسها أو يزرى بها سواء أكانت فى المقدسات المسيحية أم اليهودية . وهذه أول مرة فى تاريخ المدينة ، التى اعتادت المذابح والحرائق والهدم ، لا يراق فيها دم ولا يُهدم بيت .

والسبب الثانى : أن بيت المقدس كانت قبلة المسلمين الأولى بعد الهجرة

---

(١) أثبت نص الخطبة مجير الدين الحنبلى فى تاريخ الأنس الجليل ، القاهرة ، ١٢٣٨ هـ ج ١ ص ٢٩٦ — ٣٠٠ .

(٢) تكرر هذا فى عدد من المصادر ، ونقلنا النص من مخطوط « إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى لشمس الدين السيوطى » وأثبتناه فى كتابنا « عروبة بيت المقدس » ، مركز الأبحاث الفلسطينية فى بيروت ، ١٩٦٩ ص ٨٠ .

(٣) سفر التكوين ١٤ — ١٧ — ٢٠ .

الشريفة مدة ستة عشر أو سبعة عشر شهراً . ومنذ ذلك الوقت استحب المسلمون زيارة المدينة فى حجهم ، والتبرك بها ، والاحرام منها ، بل والحج إليها فى بعض الأزمان . وفى ذلك أحاديث كثيرة تُغنى شهرتها عن إثباتها .

السبب الثالث : أن الرسول الكريم أسرى من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى قبل الهجرة بسنة . سواء أكانت بالروح أم بالجسد . وتفكير الرسول — وهو فى ذروة دعوته — ببيت المقدس وتشوقه إليها ، له مغزى . وإثبات ذلك فى القرآن الكريم ، فى الآية الشهيرة ، توكيدٌ لرفعتها وإيثارها على سائر المدن ، حسبما ذكر المفسرون .

ولهذه الأسباب أحاط الخلفاء والأمراء والصالحون ، فى جميع العصور الإسلامية ، المدينة برعايتهم ، فأنشأوا المساجد والمدارس والزوايا والأربطة والبيمارستانات حتى أضحت « متحفاً » يضم من الآثار ما لم يجتمع فى مدينة وحدها ، وعلى رأسها جميعاً درة الفن الإسلامى اليتيمة ، وآيته العظيمة ، قبة الصخرة ، التى فتنت علماء الآثار حتى أجمعوا على أنها من أعظم الآثار الإسلامية التى عرفها التاريخ[1] .

لقد كانت بيت المقدس قبلة المسلمين الأولى ، ومع أن القبلة تغيرت ، واتجهت نحو الكعبة المشرفة ، فان قلوب المسلمين ظلت مشدودة نحو القبلة الأولى ، لا لنفع مادى ، ولا لخصب التربة ، كما يحلو لبعض الباحثين أن يؤولوا هذا الانجذاب ، بل لأسباب روحانية عميقة الجذور فى داخل النفس المؤمنة . ولا يبعد ، بطبيعة الحال ، أن يوجد عامل آخر هو اعتبار بلاد الشام حدود الجزيرة العربية الطبيعية ، وهذا حق وواقعى ، ولكنه عامل ثانوى بالقياس إلى العامل الآخر ، وعلى كل فالشعور الروحانى يلتصق

---

(١) سجل المؤرخ المعاصر عارف العارف عبارة لأحد العلماء الغربيين هى : « إن مسجد الصخرة بلا شك من أجمل الأبنية الموجودة فوق هذه البسيطة ، لا بل إنه أجمل الآثار التى خلفها التاريخ » ، الحرم القدسى ، القدس ١٩٤٧ ، ص ١٣ .

أحياناً بالشعور الدنيوى ، خاصة والإسلام فى طبيعة تركيبه ، دين ودنيا ، إيمان وعمل صالح ، يتعذر فصلهما .

والدليل على شدة الانجذاب نحو المدينة أن الذين كتبوا (الفضائل) كانوا أصلا من العراق والشام ومصر والمغرب ، علاوة على أبناء المدينة .

يضاف إلى ذلك أن الخلفاء أنفقوا على المساجد والمدارس بسخاء يسترعى النظر . ومهما كان تعليل المؤرخين لبناء عبد الملك بن مروان قبة الصخرة فان الحقيقة الأساسية تظل ماثلة فى النزعة الدينية . وكيف نعلل مبايعة معاوية بالخلافة فى بيت المقدس[1] ؟ وكيف نعلل هذا التدفق المتواصل من الصحابة والتابعين ومن بعدهم على المدينة ساكنين أو زائرين أو متبركين أو دارسين ؟ وكيف نعلل استشهاد آلاف المسلمين واستبسالهم فى استرجاع المدينة فى العهد الأيوبى بعد نحو مائة سنة من حكم الافرنج ؟

لقد ذكر بعض الباحثين أن عناية الأمويين بالمدينة ترجع إلى أسباب سياسية . ولكن الواقع أن هذه العناية لم ينفرد بها الأمويون ، بل كانت سُنة نهجها كثير من الخلفاء ، تقرباً إلى الله . يذكر أبو الحسن الربعى فى كتابه « فضائل الشام ودمشق » أنه لما قدم المهدى الشام يريد القدس دخل مسجد دمشق ومعه أبو عبدالله الأشعرى كاتبه ، فقال له : يا أبا عبدالله ، سبقتنا بنو أمية بثلاثة ، قال : وما هى يا أمير المؤمنين ؟ قال : بهذا البيت ، يعنى مسجد دمشق ، لا أعلم على وجه الأرض مثله ، وبنيل الموالى فان لهم موالى ليس لنا مثلهم ، وبعمر بن عبد العزيز ، ولا يكون والله فينا مثله أبداً . ثم أتى بيت المقدس فدخل الصخرة فقال : يا أبا عبدالله ، وهذه رابعة »(٥) .

---

(١) مثير الغرام بفضائل القدس والشام لابن سرور المقدسى ، تحقيق أحمد سامح الخالدى ، القدس ١٩٤٦ ، ص ٢٣ .

(٥) تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ، دمشق ١٩٥٠ ص ٤٢ ، ووردت فى مثير الغرام لابن سرور المقدسى ص ٥٣ .

لا نعرف على وجه الدقة من أول مصنف لكتب الفضائل . ولكن لا شبهة فى أن الأحاديث النبوية هى البذرة الأولى لهذا الفيض من الروايات والأخبار والشطحات . فلا يخلو كتاب منها من عدد كبير من الأحاديث المختلفة القيمة ، من وجهة النقد القائم على التعديل والتجريح ، وجميعها تصب فى بحر واحد هو فضائل المدينة .

وكتاب « فضائل البيت المقدس » للخطيب أبى بكر محمد بن أحمد ابن محمد الواسطى هو أقدم مخطوط وصلنا إلى الآن يحمل هذا الاسم الواضح . لقد سبقه فصول فى كتب تتحدث عن مكانة المدينة ، منها مثلا فصل عنوانه « صفة بيت المقدس » فى كتاب المسالك والممالك العزيزى تأليف الحسن بن محمد المهلبى المتوفى قبل الواسطى بنحو ثلاثين أو أربعين سنة على وجه التقريب[1]. والمادة الجغرافية فى هذا الفصل سمته البارزة . وهو أقل توقداً أو حرارة من كتاب الواسطى . ومثله ما ورد فى المؤلفات الجغرافية الشهيرة التى نشرها دى غويه :

ومخطوط الواسطى بين أيدينا الآن ، وإن كان من نسخة وحيدة حفظت فى جامع الجزار فى عكا . وستنشره (هيئة القدس العلمية) فى القاهرة . ويغنينا ذلك عن الاسهاب فى وصفه هنا . ولكن تحسن الإشارة إلى أن معظم كتب الفضائل نقلت عن كتاب الواسطى .

وقد تتبعنا كتب التراجم لنقف على ترجمة الواسطى ، فاذا بمجير الدين الحنبلى الذى عاش بعده بنحو خمسة قرون ، والذى ترجم لكثير من المقدسيين يعجز عن الاطلاع على ترجمته ، وكل ما يذكره أنه « من خطباء بيت المقدس »[2].

---

(١) نشر هذا الفصل الدكتور صلاح الدين المنجد فى مجلة معهد المخطوطات العربية ، المجلد الرابع ، الجزء الأول ، شهر مايو (آيار) ١٩٥٨ ، ص ٤٩–٥٥ ، ويذكر المنجد أن المؤلف توفى سنة ٣٨٠ هـ ، والواسطى قرأ كتابه فى بيته فى بيت المقدس ، سنة ٤١٠ هـ .

(٢) جزء ٢ - ٤٨٢ .

ويغلب على الظن أنه ابن أحمد بن محمد الواسطى كاتب ابن الموفق . فقد ذكر تاج الدين السبكى فى طبقات الشافعية الكبرى أن أحمد هذا كان مع ابن الموفق فى الوقعة التى جرت بينه وبين خمارويه بن أحمد بن طولون والتى تسمى « وقعة الطواحين » بنواحى الرملة ، وأنه كان كاتباً له[١]. ومن المحتمل أن الابن انتقل إلى بيت المقدس حيث تولى فيها الخطابة ، وحدَّث بكتابه فى بيته سنة ٤١٠ هـ ، كما ورد فى مقدمة المخطوط . وأياً كان الحال فقد كان عالماً من واسط ، فى العراق ، كما يدل على ذلك لقبه بداهة . ومع كثرة ما نقل المؤرخون عنه فقد طعن فى رواية حديث نقله عنه محمد بن أحمد الزركشى قائلا : « وزاد فيه أشياء منكرة »[٢]. وسنرى بعد أن كتب الفضائل حافلة بروايات غريبة هى أقرب إلى الرمز منها إلى الحقيقة ، وأن هذه سمة عامة لاينفرد بها الواسطى . ومع ذلك فله فضل السبق .

---

(١) ط . البابى الحلبى ، القاهرة ، ج ٣ ص ١٩٧ .

(٢) إعلام الساجد بأحكام المساجد ، القاهرة ١٣٨٥ هـ ، ص ٢٨٨ .